أنثروبولوجيا ثقافية :

المحاضرة الثانية.

نشأة الأنثروبولوجيا و تاريخها في العصر القديم

يجمع معظم علماء الاجتماع الأنثروبولوجيا ، على أن الرحلة التي قام بها المصريون القدماء في عام 1493 قبل الميلاد إلى بلاد بونت (الصومال حاليا) بهدف التبادل التجاري ، تعد من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين الشعوب ،. و قد كانت الرحلة مؤلفة من خمسة مراكب ، على متن كل منها 31 راكبا ، و ذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شملت البخور و العطور و نتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء باقزام إفريقيا. و تأكيدا لإقامة علاقات معهم فيما بعد، فقد صوّرت النقوش في معبد الدير البحري ن استقبال ملك و ملكة بلاد (بونت) لمبعوث مصري (Maduit, 1960, P. 18).

1- عند الإغريق (اليونانيين القدماء) :

يعد المؤرخ الإغريقي هيرودوتس Herodotus الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، و كان رحالة محبا للأسفار ، أول من صوّر أحلام الشعوب و عاداتهم و طرح فكرة تنوع و فوارق فيما بينها ، من حيث النواحي السلالية و الثقافية و اللغوية و الدينية. و لذلك يعتبره معظم مؤرخي الأنثروبولوجيا الباحث الأنثروبولوجي الأول في التاريخ.

فهو أول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد من الشعوب غير الأوربية (حوالي خمسين شعبا) ، حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم و عاداتهم ، و ملامحهم الجسمية و أصولهم السلالية . (Darnell, 1978,P. 13) إضافة إلى أنه قدّم و صفا دقيقا لمصر و أحوالها و شعبها ، و هو القائل العبارة الشهيرة : " مصر هبة النيل " .

و مما يقوله في عادات المصريين القدماء : " إنه في غير المصريين ، يطلق كهنة الآلهة شعورهم ، أما في مصر فيحلقونها . و يقضي العرف عند سائر الشعوب ، بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم في أثناء الحداد ، و لكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت ، فإنهم يطلقون شعر الرأس و اللحية " (خفاجة، 1966، ص. 120).

أما عن المقارنة بين بعض العادات الإغريقية و الليبية ، فيقول : " يبدو أن ثوب أثينا و درعها و تماثيلها ، نقلها الإغريق عن النساء الليبيات. غير أن لباس الليبيات جلدي ، و أن عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سير جلد

الحيوان. و أما عدا ذلك، فإن الثوب و الدرع في الحالتين سواء .. و من الليبيين تعلّم الإغريق كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة " (خشيم، 1967 ، ص. 78).

و استنادا إلى هذه الإسهامات المبكرة و الجادة ، يعتقد الكثير من علماء الأنثروبولوجيا ، أن منهج هيرودوتس في وصف ثقافات الشعوب و حياتهم و بعض نظمهم الاجتماعية ، ينطوي على بعض أساسيات المنهج (الإثنوجرافي) المتعارف عليه في العصر الحاضر.

و كذلك نجد أن أرسطو (348 - 322 ق. م) كان من أوائل الذين وضعوا أوليات الفكر التطوّري للكائنات الحية ، و ذلك من خلال ملاحظاته و تأملاته في التركيبات البيولوجية و تطورها في الحيوان .. كما ينسب إليه أيضا ، توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات و تحليل أشكالها و أفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية و هامة في دراسة النظم الاجتماعية و الإنسانية. (فهيم ، 1976 ، ص. 46).

إن الدارس لأعمال الفلاسفة اليونانيين يصل إلى معلومة طريفة و ذات صلة بالفكر الأنثروبولوجي ، و هي: أن اليونانيين أخذوا الكثير من الحضارات التي سبقتهم، حيث امتزجت فلسفتهم بالحضارة المصرية القديمة ، و تمخّض عنها ما يعرف باسم "بالحضارة الهيلينستية " تلك الحضارة التي سادت و ازدهرت في القرون الثلاثة السابقة للميلاد.

و على الرغم من هذا الطابع الفلسفي الذي يناقض - إلى حد ما - ما تتّجه غليه الدراسات الأنثروبولوجية و السوسيولوجية من دراسة ما هو قائم ، لا ما يجب أن تكون عليه الأحوال الاجتماعية و الثقافية ، فإن فضل الفكر الفلسفي اليوناني ، و لا سيّما عند كبار فلاسفتهم ، لا يمكن التقليل من شأنه أبدا .

2 - عند الرومان:

امتد عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع فيه الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل و أفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية و طبيعتها، و تفسير التباين و الاختلاف فيما بينها... و لكنهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية / المجردة للحياة الإنسانية، بل وجّهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس و المحسوس، و مع ذلك لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره كإسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب و ثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات.

و لكن، يمكن أن يستثنى من ذلك أشعار (كاروس لوكرتيوس) التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية الهامة، فقد تناول موضوعات عدة عرضها في ستة أبواب

رئيسة، صمّنها أفكار نظرياته عن المادة و حركة الأجرام السماوية و شكلها، و تكوين العالم .. و خصّص الباب السادس لعرض فكرتي : التطور و التقدم، حيث تحدث عن الإنسان الأول و العقد الاجتماعي، و نظامي الملكية و الحكومة، و نشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات و التقاليد و الفنون و الأزياء و الموسيقى (فهيم، 1986، ص. 48)

و قد رأى بعض الأنثروبولوجيين أن لوكتيوس استطاع أن يتصوّر مسار البشرية في عصور حجرية ثم برونزية ، ثم حديدية .. بينما رأى بعضهم الآخر في فكر لوكرتيوس تطابقا مع فكر لويس مورجان (1818 - 1881) أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر. و ذلك من حيث رؤية التقدم و الانتقال من مرحلة إلى أخرى، في إطار حدوث طفرات مادية ، و إن كان مردّها في النهاية إلى عمليات و ابتكارات عقلية. (Darnell, 1978, P. 15)

و إذا استثنينا أشعار لوكرتيوس هذه و ما احتوتها من أفكار تتعلّق بطبيعة الكون و نشأة الإنسان و تطوره، فإنه من الصعوبة بمكان أن تنسب نشأة علم الأنثروبولوجيا إلى الفكر الروماني القديم ، كما هي الحال عند الإغريقيين.

و على الرغم من أن الرومان اهتموا بالواقع ، من حيث ربط السلالات البشرية بإمكانية التقدم الاجتماعي و الحركة الحضارية ، فقد وجدوا في أنفسهم امتيازا و أفضلية على الشعوب الأخرى. فكان الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى أن الرومان إذا أرادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو شأن سلالة، أصدرت الدولة قرارا بمنح الجنسية الرومانية لأي منهما (مؤنس، 1978، ص. 43) و يبدو أن هذا الاتجاه العنصري، وجد في معظم الحضارات القديمة، و لا سيما الحضارات الشرقية: الإغريقية و الرومانية و الصينية.

3 - عند الصينيين القدماء :

يعتقد بعض المؤرخين، و لا سيّما الأنثروبولوجيين منهم، أنه على الرغم من اهتمام الصينيين القدماء بالحضارة الرومانية و تقديرها، فلم يجدوا فيها ما ينافس حضارتهم.

كان الصينيون القدماء يشعرون بالأمن و الهدوء داخل حدود بلادهم، و كانوا مكتفين ذاتيا من الناحية الاجتماعية و المعاشية، حتى أن تجارتهم الخارجية انحصرت فقط في تبادل السلع و المنافع ، و من دون أن يكون لها تأثيرات ثقافية عميقة. فلم يعبأ الصينيون في القديم بالثقافات الأخرى خارج حدودهم، و مع ذلك. لم يخل تاريخهم من بعض

الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية، و التي كانت تتّسم بالازدراء و الاحتقار (Darnell, 1978, P. 15)

و هذا الاتجاه نابع من نظرة الصينيين القدماء العنصرية ، إذ كانوا يعتقدون - كالرومان - أنهم أفضل الخلق، و أنه لا وجود لأي حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، بل كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيئ.. و لكي يؤكد ملوكهم هذا الواقع أقاموا " سور الصين العظيم " حتى لا تدنّس أرضهم بأقدام الاخرين.(مؤنس، 1978، ص15)

لذلك اهتم فلاسفة الصين القدماء ، بالأخلاق و شؤون المجتمعات البشرية ، من خلال الاتجاهات الواقعية / العملية في دراسة أمور الحياة و معالجتها، لآن معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي، في أي مجتمع، تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، و الذي يكشف بالتالي عن طرائق التعامل فيما بينهم من جهة، و يحدد أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى. و هذا ما يفيد الباحثين في العلوم الأخرى ، و لا سيّما تلك التي تعني بالإنسان.

4 - الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى:

يجمع معظم المؤرخين أن تسميتها بالعصور الوسطى يرجع لكونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأوربية و ارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، و لأنها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأوربية القديمة (اليونانية و الرومانية) و بداية عصر النهضة الأوربية (عصر التنوير) و الانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، إحياء التراث الفكري القديم ، و إبداعات في الفنون و الآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، و تتّسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة.

أ - العصور الوسطى في أوربا:

يذكر المؤرخون أنه في هذه العصور الوسطى (المظلمة) تدهور الفكر العقلاني ، و أدينت أية أفكار تخالف تعاليم المسيحية، أو ما تقدمه الكنيسة من تفسيرات للكون و الحياة الإنسانية ، سواء في منشئها أو في مآلها. و لكن إلى جانب ذلك كانت مراكز أخرى وجّهت منطلقات المعرفة ، و حددت طبيعة الحضارة الغربية في تلك العصور، كبلاط الملوك مثلا، الذي كان يضم في العادة فئات من المثقفين كرجال الإدارة و السياسة و الشعراء (فهيم، 1986، ص50)

يضاف إلى ذلك التوسع في دراسة القانون (جامعة بولونيا) و دراسة الفلسفة و اللاهوت (جامعة باريس) مما كانت له آثار واضحة في الحياة الأوربية العامة(السياسية و الاجتماعية و الثقافية و الدينية) و مهّد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوربا بعد هذه العصور.

لقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب ، إلا أنها اتسمت غالبا بالوصف التخيلي ، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع . مثال ذلك ما قام به الأسقف(إسيدور) الذي عاش ما بين 560 - 636 م) حيثأعد في القرن السابع الميلادي موسوعة عن المعرفة ، أشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة و عاداتهم و لكن بطرية وصفية عفوية ، تتّسم بالسطحية و التحيّز.

و ممّا ذكره ، أن قرب الشعوب من أوربا أو بعدها عنها ، يحدد درجة تقدّمها، فكلما كانت المسافة بعيدة كان الانحطاط و التدهور الحضاري مؤكدا لتلك الشعوب. ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية ، بأنهم من سلالات غريبة الخلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف.

و قد ظلت تلك المعلومات سائدة و شائعة حتى القرن الثالث عشر ، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدها الفرنسي باتولو ماكوس و التي حظيت بشعبية كبيرة ، على الرغم من أنها لم تختلف كثيرا عن سابقتها في الاعتماد على الخيال. (فهيم، 1986، ص52)

ب ـ العصور الوسطى عند العرب :

تمتد من منتصف القرن السابع الميلادي و حتى نهاية القرن الرابع عشر تقريبا، حيث بدأ الإسلام في الانتشار ، و بدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين و الازدهار. و قد تضمّنت هذه الحضارة : الآداب و الأخلاق و الفلسفة و المنطق، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة الاجتماعية و السياسية و العلاقات الدولية (Darnell, 1978, P. 259)

و قد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة و سبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات الحكم و التنظيم.

و لذلك برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم (البلدان) لياقوت الحموي، و كذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل " مسالك الأمصار) لإبن فضل العمري، و نهاية الأرب في فنون العرب" للنويري.

و إلى جانب اهتمام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران ، فقد تميّزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة و الخبرة الشخصية ، و هذا مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب و الثقافات الإنسانية.

و هناك من تخصّص في وصف إقليم واحد مثل : البيروني الذي عاش ما بين(362 - 440 هجرية) ، ووضع كتابا عن الهند بعنوان" تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة". وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية و اجتماعية و أنماط ثقافية. و اهتم أيضا بمقارنة تلك النظم و السلوكيات الثقافية ، بمثيلاتها عند اليونان و العرب و الفرس . و أبرز البيروني في هذا الكتاب ، حقيقة أن الدين يؤدي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية، و توجيه سلوك الأفراد و الجماعات، و صياغة القيم و المعتقدات. (فهيم، 1986، ص54)

كما كانت لرحلات ابن بطوطة و كتابات خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية ، و طابع شخصياتهم و أنماط سلوكاتهم و قيمهم و تقاليدهم. فمما كتبه في استحسان أفعال أهل السودان: " فمن أفعالهم قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه. و منها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها و لا المقيم من سارق و لا عاصب، و منها عدم تعرضهم لمال من يموتفي بلادهم من البيضان (البيض و الأجانب) و لو كان القناطير المقنطرة. و إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقه (ابن بطوطة، 1968، ص672)

أما كتاب ابن خلدون" العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر، و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" فقد نال شهرة كبيرة وواسعة بسبب مقدمته الرئيسية و عنوانها: " في العمران و ذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك و السلطان، و الكسب و المعاش و المصانع و العلوم، و ما لذلك من العلل و الأسباب" . و تعتبر هذه المقدمة عملا أصيلا في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال إفريقيا ، و لا سيّما العادات و التقاليد و العلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. و قد شكّلت موضوعات هذه المقدمة - فيما بعد - اهتماما رئيسيا في الدراسات الأنثروبولوجية.

و من أهم الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدمته، و التي لها صلة باهتمامات الأنثؤوبولوجيا، هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية و الظواهر الاجتماعية. فقد رد ابن خلدون - استنادا إلى تلك الدعامة- اختلاف البشر في ألوانهم و أمزجتهم النفسية و صفاتهم الجسمية و الخلقية ، إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضا عاملا هاما في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الانسانية (ابن خلدون، ج1، 1966 ،ص. 291) كما تناول ابن خلدون في مقدمته أيضا، مسألة قيام الدولة و تطوّرها و أحوالها، و بلور نظرية

(دورة العمران) بين البداوة و الحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية و حياة الكائن الحي.

و قد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق و في الغرب- على حد سواء - في العصور الوسطى.. حيث اعتبر ابن خلدون أن التطور هو سنة الحياة الاجتماعية ، و هو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية.

يقول في ذلك : " إن أحوال العالم و الأمم و عوائدهم و نحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة و منهج مستقر، و إنما هو اختلاف على الأيام و الأزمنة و انتقال من حال إلى حال. و كما يكون ذلك في الأشخاص و الأوقات و الأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق و الأقطار و الأزمنة و الدول. (ابن خلدون، ج1، 1966 ،ص. 252) فعمر الدول عند ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة و تنمو إلى الشباب و النضج و الكمال، ثم تكبر و تهرم و تتلاشى إلى الزوال.

لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية و دورة الحضارات التي تمر بها، فكان بذلك أسبق من علماء الاجتماع في أوربا. لذلك ، يرى بعض الكتاب و المؤرخين، أن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقيلعلم الاجتماع ، بينما يرى بعضهم الآخر ، لا سيما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون في مقدمة ابن خلدون بعضا من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية و مناهجها. و في أمريكا ،أشار جون هونجيمان أيضا في كتابه" تاريخ الفكر الأنثروبولوجي" إلى أن ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية مارفين هاريس عن: المادية الثقافية Cultural Materialism و نجد أن هاريس ذاته، يذكر أن ابن خلدون و من قبله الإدريسي قدّما أفكارا و مواد ساعدت في بلورة الحتمية الجغرافية ، التي سادت إبان القرن الثامن عشر. (Anderson, 1984, P.112)

و استنادا إلى ما تقدم يمكن القول : إن الفلاسفة الفلاسفة و المفكرين العرب أسهموا بفعالية - خلال العصور الوسطى - في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية ، و لا سيّما التنوع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع أخرى. و لكن على الرغم من اعتبارها مصادر للمادة الإثنوجرافية التي درست(أسلوب الحياة في مجتمع معيّن و خلال فترة زمنية محددة) و ل سيمّا العادات و القيم و أنماط الحياة ، فإن الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر كعلم جديد معترف به، لم تكن ذات صلة تذكر بهذه الدراسات ، و لا بغيرها من الدراسات (اليونانية و الرومانية) القديمة.

5 - الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوربية:

يتّفق المؤرخون على أن عصر النهضة في أوربا، بدأ في نهاية القرن الرابع عشرالميلادي، حيث شرع الأوربيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم و المعارف الإغريقية و العربية، متلرافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية. و تبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية و الاجتماعية، و الذي تبلور و تكامل في القرن السابع عشر.

إن هذه التغييرات مجتمعة أدت إلى ترسيخ عصر النهضة أو ما سمي (عصر التنوير) و أسهمت بالتالي في بلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطور الحضارة البشرية في إطارها العام و عبر التاريخ الإنساني. الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب و حضاراتها، في أوربا و خارجها، من أجل المقارنات، و التعرّف إلى أساليب حياة هذه الشعوب و ترتيبها بحسب مراحل تطوّرية معيّنة، بحيث يضع ذلك أساسا لنشأة علم الأنثروبولوجيا.

لعل أهم رحلة إو (رحلات) استكشافية مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا، ما قام به كريستوف كولومبس إلى القارة الأمريكية ما بين (1492 - 1502) حيث زخرت مذكّراته بمشاهداته و احتكاكاته بسكان العالم الجديد، و بالكثير من المعلومات و المعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب و عاداتها و تقاليدها، اتسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة.

و ممّا قاله في وصف جزر الكاريبيان في المحيط الأطلسي: " إن أهل تلك الجزر كلهم عراة تماما، الرجال منهم و النساء، كما ولدتهم أمهاتهم. و مع ذلك ، فثمة بعض النساء اللاتي يغطين عورتهن بورق الشجر، أو قطعة من نسيج الألياف تصنع لهذا الغرض. ليست لديهم أسلحة و مواد من الحديد أو الصلب و هم لا يصلحون لاستخدامها على أية حال. و لا يرجع ذاك إلى ضعف أجسادهم ، و إنما إلى كونهم خجلون و مسالمون بشكل يثير الإعجاب.. " (Oswalt, 1972, P. 10)

و كتب في وصفه لسكان أمريكا الأصليين: " إنهم يتمتعون بحسن الخلق و الخلق، و قوة البنية الجسدية، كما أنهم يشعرون بحرية التصرّف فيما يمتلكون، إلى حد انهم لا يترددون في إعطاء من يقصدهم أيّا من ممتلكاتهم، علاوة على أنهم يتقاسمون ما عندهم برضى و سرور.. " (Boorstin, 1983, P. 10)

و هكذا كان لرحلات كولومبس و اكتشافه العالم الجديد (أمريكا) عام 1492 أثرها الكبير في إدخال أوربا حقبة جديدة، و في تغيير النظرة إلى الإنسان عامة، و الإنسان الأوربي خاصة ، مما أثر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي . و ذلك، لأن هذه الاكتشافات الجغرافية/ الاجتماعية و ما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزاتهم و أنماط حياتهم، أظهرت بوضوح تنوّع الجنس البشري، و أثارت كثيرا من المسائل و الدراسات حول قضايا النشوء و التطور عند الكائنات البشرية.

لقد تميّز عصر النهضة الأوربية ، بظاهرة كان لها تأثير في تزوليد نظريات جديدة عن العالم و الإنسان، و هي أن المفكرين اتفقوا على الرغم من تباين وجهات نظرهم ، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء و مصادرها، و تكوين الطبيعة و قوانينها ، و صفات الإنسان الجسدية و العقلية و الأخلاقية. (فهيم، 1986، ص 86)

و ظهر نتيجة لهذا الموقف الجديد اتجاه لدراسة الإنسان عرف بالمذهب الإنساني (العلمي) اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر ، حيث اتجهت دراسة الطبيعة الإنسانية و فهم ماهيتها و أبعادها وفق المراحل التاريخية / التطورية للإنسان.

و قد تبلور هذا الاتجاه (المذهب) العلمي في الدراسات التجريبية و الرياضية ، التي ظهرت في أعمال بعض علماء القرن السابع عشر ، من أمثال فرنسيس بيكون (1561 - 1626) و رينيه ديكارت (1596 - 1650) و إسحاق نيوتن (1642 - 1727) ، و غيرهم ، حيث أصبحت النظرة الجديدة للإنسان على أنه ظاهرة طبيعية ، و يمكن دراساته من خلال البحث العلمي و المنهج التجريبي، و معرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطور الإنسانيو التقدم الاجتماعي، و هذا ما ساهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي، و أدى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا، خلال عصر التنوير.

أما بالنسبة للدراسات الإثنوجرافية (دراسة أسلوب الحياة و العادات و التقاليد)و الدراسات الإثنولوجية (دراسة مقارنة لأساليب الحياة للوصول إلى نظرية النظم الاجتماعية) ، و الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية ، فثمة أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء.

و قد تكون محاولة الرحالة الإسباني جوزيه أكوستا في القرن السادس عشر، لربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الإثنوجرافية و التنظير بشأنها.

فقد افترض أكوستا أن الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلا من آسيا إلى أمريكا ، و بذلك فسّر اختلاف حضاراتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوربا حينذاك. و قدّم أكوستا أيضا افتراضا آخر حول تطور الحضارة الإنسانية عبر مراحل معيّنة، معتمدا في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة و الكتابة.

و قد وقفت أوربا في أعلى الترتيب، و أتت بعدها في المرتبة الثانية الصين لمعرفتها الكتابة، بينما جاءت المكسيك في مرتبة أدنى من ذلك.. و صنفت المجتمعات الأخرى بدرجات متباينة في المواقع الأدنى من هذا الترتيب.(Darnell, 1978, P. 81) و ربما شكّل هذا التصنيف أساسا استند إليه الأنثروبولوجيون - فيما بعد - للتمييز بين المجتمعات.

و ظهر إلى جانب أكوستا / الإسباني في الدراسة الإثنوجرافية عن الشعوب البدائية ، عالم الاجتماع الفرنسي ميشيل دي مونتاني الذي عاش ما بين 1532 - 1592 ، و أجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا ا، لمكتشفة، و الذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوربا، و بعد أن جمع منهم المعلومات عن العادات و التقاليد السائدة في موطنهم الأصلي خرج بالمقولة التالية: " إنه لكي يفهم العالم فهما جيدا ، لا بد من دراسة التنوع الحضاري للمجتمعات البشرية و استقصاء أسباب هذا التنوّع" و يكون بذلك قد طرح فكرة (النسبية الأخلاقية).

و ممّا قاله في هذا الإطار ما كتبه في مقاله الشهير عن " أكلة لحوم البشر" و جاء فيه: " يبدو أن ليس لنا أي معيار للحقيقة و الصواب، إلا في إطار ما نجده سائدا من آراء و عادات على الأرض التي نعيش عليها (أوربا) ، حيث نعتقد بوجود أكمل الديانات، و أكثر الطرق فاعلية في الحصول على الأشياء.

إن هؤلاء الناس (أكلة لحوم البشر) فطريون / طبيعيون ، مثل الفاكهة البرية . فقد بقوا على حالهم البسيطة ، كما شكّلتهم الطبيعة بطريقتها الخاصة، و تحكمت فيهم قوانينهم و سيرتهم. " (Leach, 1982, P. 67) و من هذه الرؤية لاقى كتابه الشهير " المقالات " الصادر عام 1579 اهتماما كبيرا لدى مؤرخي الفكر الأوربي عامة ، و الفكر الفرنسي خاصة.

و يأتي القرن الثمن عشر، ليحمل معه كتابات جون جاك روسو التي احتلت أهمية كبيرة لدى مؤرخي علم الأنثروبولوجيا ، و ذلك لما تضمّنته في دراستها الإثنوجرافية للشعوب المكتشفة(المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الغربية / الأوربية .

لقد تميّزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند روسو بالتجرد و الموضوعية ، حيث تجلى ذلك في نقد بعض القيم و الجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسان بعض الجوانب الحياتية في المجتمعات الأخرى ، و في هذا الإطار يعد كتابه " العقد الاجتماعي " من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي.

و كان إلى جانب روسو البارون دي مونتسكييه ، الذي وضع كتاب (روح القوانين) و أوضح فيه فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين و العادات و التقاليد و البيئة. و سادت هذه الفكرة . و سادت هذه الفكرة الترابطية بين أعمال الأنثروبولوجيين في أوائل القرن العشرين ، و لا سيّما عند الأنثروبولوجيين الإنجليز ، حيث انتقل اهتمام مونتسكييه بدراسة النظم السياسية ، و تأثير المناخ على نوعية الحضارة أو الثقافة - فيما بعد - إلى الكتابات الأنثروبولوجية ، و شكّل مجالا واسعا للدراسات الأنثروبولوجية. (Darnell, 1978, P. 87)

أما في ألمانيا ، فقد تبلور الفكر في عصر التنوير ، عن التفوّق العنصري و النزعة القومية الشوفينية (التعصبية) ، و ظهر ذلك واضحا في كتابات كل من : جورج هيجل

1770 - 1831) ، و جوهان فيخته (1762 - 1814) حيث جعلا الشعب الألماني ، الشعب الأمثل و الأنقى بين شعوب العالم.

أما كتابات جوهان هيردر (1744 - 1803) فجاءت لتعزّز التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي ، و التفاوت فيما بينها بمدى التأثر بمظاهر المدنية ، و في تمثّلها لمقومات الحضارة. و على هذا الأساس، يذهب هيردر إلى أن ثمه سلالات بشرية خلقت للرقي ، و سلالات أخرى قضي عليها بالتأخر و الانحطاط (الخشاب، 1970، ص. 375)

لكن هذا الاتجاه العنصري في الدراسات الأنثروبولوجية ، واجه انتقادات كبيرة في بداية القرن العشرين،حيث برزت فكرة أنه لا يجوز أن تتّخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، و أن العلاقة بين الجنس البشري و اللغة ، لا يجوز أن يكون أساسا لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متمايزة. و قد نقض ذلك و دحضه ، فيما بعد الفكر الأنثروبولوجي القائم على المشاهدة الواقعية، و الدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى.

و هنا يمكن القول : إن الأنثروبولوجيا المتحررة التي ظهرت اتجاهاتها و قضاياها الإنسانية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نجد - و لا شك - في الكتابات الفرنسية في عصر التنوير ، جذورا أو أصولا نظرية لمنطلقاتها الفكرية (فهيم، 1986 ، ص. 101)

و تأسيسا على ما تقدّم ، يمكن القول : إن الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوربا في عصر التنوير ، و تجلى في كتابات العديد من الفلاسفة و الباحثين و المؤرخين ، شكّل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا ، الذي بدأ يستقل بذاته مع بداياتالقرن العشرين ، و يتبلور بمنطلقاته و أهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته.

مصادر و مراجع الفصل :

- ابن بطوطة، أبو عبد الله (1968) ، رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت.
- ابن خلدون، عبد الرحمان (1966) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي ، القاهرة.
- الخشاب، أحمد (1970) دراسات أنثروبولوجية، دار المعارف بمصر.
- خشيم، علي فهمي (1967) نصوص ليبية، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا.
- خفاجة، محمد صقر(1966) هيرودوت يتحدث عن مصر، دار العلم، القاهرة.
فهيم، حسين (1986) قصة الأنثروبولوجيا - فصول في تاريخ الإنسان - سلسلة عالم المعرفة، 1981، الكويت.
- مؤنس، حسين (1978) الحضارة - دراسة في أصول و عوامل قيامها و تدهورها، عالم المعرفة، عدد كانون الثاني، الكويت.

- Anderson, John (1984),conjuring with Ibn Khaldoniew, ,from an Anthropological point of view, Leiden.
- Boorstin, Daniel J. (1985) The discoveries A history of man's search to know his world and himself. Vintage books edition.
- Darnell, Regna and editor (1978)Reading in a history of Anthropology, University of Illinois.
- Leach Edmund (1982) Social Anthropology, fontana, Paper backs.
- Mauduit, Wendell (1972) Otherpeople, Other customs, HoltRinehart and winston inc.

المصدر : عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، - دراسة - منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 2004 (الفصل الثاني ص ص . 22 - 40)